مالك سمارة

"في مدينة الذبح" لبياليك: الطريق الذُّهاني لـ«القوة اليهودية»

في قصيدته الملحميّة «في مديح الظلّ العالي»، أوجز محمود درويش مظلمة الفلسطينيين المركّبة مع الصهيونية، حين كتب، مستحضرًا ليالي بيروت الدامية: «ضحيّة قتلت ضحيّتها، وكانت لي هويتها». لكن للفيلسوف الروماني إميل سيوران مقولة أكثر بلاغة في قراءة التاريخ، وحكمة تبدو عابرة للأمم: "حين يُشبِعُ الطغاةُ شراستهم يتحولون إلى رجالٍ طيبين، وكان يمكنُ أن تعودَ الأمورُ إلى نصابها لولا غيرةُ العبيد، ورغبتهم في إشباع شراستهم هم أيضًا". إن "طموح الخروف إلى أن يتقمّص دور الذئب" هو، كما يستطرد سيوران، باعث أغلب الأحداث. هذا أيضًا، إلى حدّ بعيد، باعث مأساة الفلسطينيين نفسها، سوى أنهم صاروا مقاصّة لذنوب غيرهم، وضحايا ضحيّة تشق الدرب «السيكوباثي" ذاته لتتقمّص جلّاديها- من زمن المذابح الصليبية ومحاكم التفتيش، إلى النازيين والقيصريين في زمن صعود الصهيونية.

أحدث هؤلاء القيصريون، من أباطرتهم إلى هياكلهم البيروقراطية إلى دهمائهم، سلسلة مجازر في أوساط اليهود على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين، وأبرزها مذبحة كيشينيف التي راح ضحيتها نحو ٤٩ يهوديًّا، بعدما ترك الغوغاء من الروس، بعَتلاتهم وعصيهم، يعيثون في «الغيتو» اليهودي يومين كاملين. في هذه الواقعة، كتب حاييم بياليك قصيدته الملحميّة هذه. وعلى وحشيّة المشاهد وفظاعتها، كانت الصورة، مما نقرؤ من شهادات الناجين، لا تقلّ قتامة بالفعل إلى حد بعيد؛ ولا يمكن لأي مجزرة أن تكون أقلّ قتامة. في التفاصيل الصغيرة التي لا يغفل عنها بياليك، لنا أن نقرأ الكثير من وقائع المقتلة: النساء الهامدات على نثارة خشب، في تلميح إلى الاغتصاب الجماعي الذي وقع في إحدى مناجر البلدة؛ الريش المتطاير في الهواء محمّلًا بالدم، وممتزجًا بطَلْع الأكاسيا- هذا الريش الذي يملأ المكان، حتى بطون الموتى المبقورة، هو استعارة للوسائد والفرش الذي

كان المهاجمون يشقّونه وينثرون ريشه في نحو ١٥٠٠ منزل اقتحموها؛ خبز «الماتساه» المخزون في الأقبية، حيث يختبئ الباحثون عن نجاة- وهو أيقونة الحدث كلّه، ذلك أن صبيًّا روسيًّا قُتل فوجّهت أصابع الاتهام تلقائيًّا إلى اليهود، ثم نُشر خبر في جريدة محلّية معادية للساميّة يعيد ترديد خرافة مفادها أن اليهود يحتاجون الدم المسيحي لصناعة خبز «الماتساه» هذا، الذي يعدّ لازمة في كلّ مطبخ يهودي خلال عيد الفصح بالذات، وقد صادف تلك الأيام.

لكن بياليك حرص على أن ينقل الصورة بكل ما تثيره من روع وقشعريرة، وربّما اشمئزاز، مترفّعًا عن مداراة العاطفة وملاينة المشاعر. هو حتّى لم يدارِ مشاعر الموتى وذويهم، حدّ وصم الضحايا بنقائص «الدنس»، و"الرجس"، و"الخزي"، و"العار"، و«العبودية»؛ وذويهم بـ«المهانة»، و«التسول»، ثم ازدراء صلواتهم وتضرّعهم، وحزنهم ومناحتهم. لقد أراد بياليك لقارئه، لصاحبِهِ الذي يخاطبه في القصيدة، لليهوديّ، أن يمرّ على كلّ تلك المشاهد من دون أن يرمش له طرف، أو أن تخالجه خفقة عاطفية. هذا ما يصرّح به بنفسه حين يكرّر مخاطبًا قارئه بأن «يرى كل شيء عن كثب ثم إياه والبكاء». هنا بدا بياليك وكأنه أراد لقارئه- صاحبه- اليهودي- أن يألف هذه المشاهد؛ وكأنه رسم هذه الصورة الذهانية حتّى يحرف نفسية متلقّيها عن مشاعر الحزن إلى مشاعر النقمة، وعن الشفقة والاسترحام إلى الشحن والتقمص. إنه يدعو قارئه إلى تأمل المشاهد حدّ التشبّع: «املؤوا قلوبكم بها.. حتى تصير دفق سمّكم»، هذا اقتباس مباشر مما سنقرؤه في القصيدة. يكرّر بياليك المعنى ذاته، حين يصوّر مشاعر النقمة والحقد وكأنها أفعى كامنة تخزّن السمّ جيلًا بعد جيل، ثمّ يدعو قارئه- صاحبه- اليهوديّ إلى أن يطلق لها العنان في يوم غضب ما، من دون تفريق بين من تتملّكه تجاههم مشاعر بغضاء، أو مشاعر رحمة.

يمكن القول إن هذه القصيدة، في تبجيلها لمفهوم القوة على تجريدها، غاشمة كانت أم ثائرة، تظلّ لبنة رئيسة في التأسيس لثقافة «العنف/ القوة» الصهيونية من زمن «اليهوديّ الجديد» إلى زمن «عوتصماه يهوديت"؛ ولا مبالغة في أن يصفها المؤرخ المختص في التارخ اليهودي ستيفن زيبرشتان، حديثًا، بأنها «القصيدة اليهودية الأكثر تأثيرًا منذ القرون الوسطى». وقد نجد لذلك معلّلات كثيرة: قبل أن تلهم هذه المقطوعة اليهود في روسيا لحمل

حاييم بياليك.

السلاح وتشكيل خلايا مقاومة سرّية، عيّنت القصيدة، في المقام الأول، على لبّ الفلسفة الصهيونية، حينما يُظهر بياليك ازدراءه لمنتظري الخلاص الرباني، ويحثّ على استجلاب الخلاص باليد. ومع انتشار القصيدة، التي ترجمت إلى اليديشية والروسية، في أوساط اليهود، توازيًا مع تأثير المذابح، أصبح للصهيونية مريدون كثر داخل الإمبراطورية الروسية، التي ستصدّر خلال الأعوام اللاحقة موجات الهجرة الصهيونية الثانية، حاملة معها نواة الدولة اليهودية المنظورة وقادتها المستقبليّين.

أحد هؤلاء هو يسرائيل شوحط، الذي سيحمل معه تجربة التشكيلات السريّة اليهودية المسلّحة في روسيا -التي ولدت بتأثير من دعوى بياليك- إلى فلسطين، وسيؤسس هناك منظمة "بار غيورا"، الحاضنة الأم لمنظمة "هاشومير"، ومن ثمّ "الهاغاناة"- الحاضنة الأم للجيش الإسرائيلي. من هنا، يؤرخ البعض للعمل العسكري اليهودي الحديث بدءًا من قصيدة بياليك هذه، ومنهم عرّاب الصهيونية التنقيحية بعينه، زئيف جابوتنسكي، إذ يقول: «نهضة النزعات المكابية في الغيتو حقًّا تبدأ من هذه القصيدة (في مدينة الذبح): منظمات الدفاع عن النفس التي انتشرت في عموم روسيا... «هاشومير".. وحتى الفيلق اليهودي في الحرب العالمية الأولى- كلّها أبناء

"في مدينة الذبح" لبياليك: الطريق الذُّهاني لـ«القوة اليهودية».

بياليك". والآن، تلك "الأفعى" التي اختزنت السمّ جيلًا بعد جيل، مذبحة بعد مذبحة، خرابًا بعد خراب، ما انفكّت تغرس أنيابها، دون أن ترى بعين «النقمة» أو عين «الرحمة»، في قلوب الأبرياء.

***

قم واقصد مدينة الذبح حتى تبلغ الميادين
وانظر بعينيك.. وامسح بيديك الجدران
والأشجارَ والأحجارَ وجبص الأسوار
وتلمّس أثر الدم المتجلّد وأدمغة القتلى الجفيفة
ثمّ إذا بلغت الخرائب.. وخطوت فوق الرّدم
ودلفت عبر الصدوع.. وعبر التنانير المحطّمة
حيث تتعمّق هوّة الهزّة.. وتنفسح كوة الصدوع
وتزداد الحجارة السوداء انجلاء.. ولِبناتها المحترقة عريًا
كما لو أنها جروح غائرة تفتّحت على سواد
ها قد عفا رسمُها وما لها من رأْب
هناك ستغرق قدماك في الريش.. ثم ستتعثران في أكوام مكومة
من حطام محطم. وشظايا مشظاة.. ونثارة كتب ومخطوطات
وأطلال عمل لا إنساني.. وآثار أشغال شاقة
ثمّ إذا برحت الخرائب وعبرت الطريق من هنالك
ستزهر الأكاسيا أمامك وتنفض عطرها في منخريك
نوّارها امتزج بالريش[1].. ورائحتها رائحة الدم
لكن بخورها الغريبة ستبثّ في حمأتك
رواء الربيع
وستمحو مشاعر الاشمئزاز
وسهام الشمس الكثيفة ستخرق لبّك
قرونها السبعة سترتدّ عبر كل شظيّة زجاج
وتعبر جذلى على أساك
لأن الله اقتضى أن يحلّ الربيع والمذبحة معًا؛
ها أشرقت الشمس ونوّرت الأكاسيا.. وذبح الذابحون..
ثمّ هروبًا إلى الميدان.. وفي الميدان ارتفعت كومة
وأعلى الكومة اثنان قطيعا الرأس: اليهودي وكلبه
فأس واحد ضرب عنقيهما... وتركا في قمامة واحدة
وبدمهما المتمازج سيستدرجان الخنازير من كلّ جانب
غدًا ستمطر ويجريان مع السيل إلى إحدى برك الشجيرات
ولن يصيح الدم بعدُ من البلاليع والقُمام
لأن أكثره سيتلاشى.. والباقي سينبت زهورًا شائكة
وبعدئذ.. كأن شيئًا لم يكن
ثم إذا تسلّقت السقائف ووقفت هنالك في العتمة
فثمّ موتٌ أيضًا ينشر روعه في هدأة الظلام
وبين الثقوب السوداء، والزوايا حيث تتراقص الظلال-
سترى عينين جامدتين تحدّقان صوبك
حجر القداسة هما.. أرواح مهجورة
أسبلتا تحت زاوية باب العلّية.. وانكتمتا
هنا وجدهما الفأس.. وها هنا ستشهدان مشهدهما الأخير-
كلَّ لعنات الحياة.. وحسرة موت بلا ثمن
هنا أشباح هلع ورعشة.. تخرج من مخابئها
تشتكي قهرها واجمة... وعيونها تسأل: لماذا؟
ومن غيرُ الله في هذه الأرض يحمل كل هذا الصمت؟
ثمّ إذا رفعت مقلتيك إلى السقف.. حيث القرميد صامت أيضًا
اسأل العناكب التي ظلّت حيّة وشاهدة.. ستخبرك عمّا وجدت
عن البطون المبقورة.. المحشوّة بالريش
وأنوف مدقوقة بالمسامير... وجماجم هشّمتها المطارق
وعن أناس ذبحوا وعلّقوا على المشاجب
وعن الرضيع في حجر أمّه المثلومة... نائمًا وفي فمه حلمتها الباردة
وعن ما حلّ بالطفل المشقوق إذ فاضت روحه على صياح «أمي»
عيناه حتّى الآن تسائلانني عن الحساب..
عن كثير من هذا وذاك ستنبئك الوزغة
عن أفعال تثقب اللباب وفيها من الموت ما يكفي
لتفتك بقلبك وروحك إلى الأبد
ثمّ إذا تجلّدتَ.. وخنقت في حلقك العوْلَة
ودفنتها في وجدانك قبل أن تنفجر
ثم قفزت من هنالك خارجًا
ستظهر لك البلاد على سجيّتها؛
الشمس - كما في الأمس - تسكب ضوءها على الأرض
حتى إذا نزلت من هناك إلى الأقبية الحالكة
إلى حيث دُنّست بنات قومك البتولات
واحدةً واحدة يطؤها سبعة سبعة غير مختونين
البنت على مرأى أمها.. والأم على مرأى بنتها... قبل الذبح وحين الذبح وبعده
ثمّ تحسّس بكلتا يديك الوثار الملطّخ... والوسادة المُدمّاة
أثرًا من خنازير الغابات.. وحوش البشر
بفأس يقدح دمًا في أيديهم
وانظر ثمّ انظر... إلى عتمة الركن ذاته

تحت مدقّة الماتساه[٢].. وراء البرميل الخشبي ذاته
حيث يجثو أزواج وخُطّاب وإخوة.. وأعينهم تبرق من بين الثقوب
يشاهدون الأجساد المقدّسة تحترق تحت الأنفاس البهيمية
مختنقات في شَيْنهن.. يجترعن دم أعناقهن
وبينما يتقاسم الرعاع لحمهنّ
جلسوا في عارهم يراقبون.. ولم يحرّكوا ساكنًا
وربّما كان أحدهم يبتهل في سرّه: إلهَ هذا العالم... اصنع معجزة.. أو ادفع عنا السوء
وأولئك اللاتي أفقن من دمهنّ وعشن ليرين رجسهنّ
ها قضيت حياتهنّ وتلطّخ عالمهنّ
لقد غادرن أخدارهنّ وأزواجهنّ وقصدن بيت الربّ
وألفين في مهربهنّ بركة المأوى والخلاص
بينما الكهنوتيّون من الرجال خرجوا يسألون حاخاماتهم
"أزوجتي مباحة أم محرّمة؟»
ثم ستعود الحياة إلى مجراها

امضِ وسأدلُّك إلى كل المخابئ
إلى المراحيض وحظائر الخنازير وأماكن قذارة أخرى
ورَ بأم عينيك أين يختبئون.. إخوتك.. أبناء جلدتك... أحفاد المكابيين
سليلو الأشدّاء... نسل القديسين
عشرين نفسًا في حفرة واحدة.. أو ثلاثين
أهكذا يشيدون مهابتهم بين الخلائق.. أهكذا يمجّدون اسمي!
مفرّ الفئران فرّوا.. ونفذوا كالصراصير إلى مخابئهم
وسيموتون ميتة الكلاب حيثما وُجدوا
ثم في الغداة سيخرج الصبيّ اللاجئ... ويرى جيفة أبيه وقد أنتنت وتحلّلت
وما يفيد البكاء الآن يا بني؟
وما يجدي أن تصرّ أسنانك وتذوب؟
ثمّ إذا نزلت منحدر البلدة وألفيت الجنّة الخضراء
وفي الجنة حصيدة كبيرة.. هي حصيدة القتل
ففي مستعمرة بوم ضخمة.. وسط رعب الخفافيش
الممددة على الجثث سكرى بدمائها
ثمّة عربات جرّ تحتلّ مساحات الحقل
وقد نشبت كوابحها كأصابع ممدودة للقتل
عجلاتها - كأفواه الخفافيش - لا تزال ملطّخة بدماء وأدمغة بشرية
ثمّ في المغيب
هبطت الشمس ملتحفة سحبًا دامية.. ومحزّمة بنار متّقدة
ثمّ إذا فتحت البوّابات ودخلت الحقل على مهل
ستتيه قدماك في هول المكان
ريح خوف ترفرف من كلّ صوب
تطفو على الجدران.. يغلّلها الصمت
وتحت العجلات... بين الحفر والشقوق
ستستشعر رجفة ما من الأعضاء المهروسة
إذ تتلوّى في سكراتها وتقعقع في دمها
وأنّة حبيسة... نشيج أخير يعلو فجأة مختنقًا وباردًا
كما لو أنه بقايا ألم ينطفئ.. يتطاير شرره حينًا ويخمد
تلْكُمْ روح مقهور غاله الذلّ وأثقلته الرزايا
حبس نفسه في بيت العبودية.. وظلّ معلّقًا في عوالم العذاب وأبى فكاكًا
والروح القدس إذ تعبت من الأسى
تطوف هنا هائمة في كل صوب.. حتى تجد راحتها
تلتمس البكاء ولا قِبَل لها... تودّ النحيب.. وتتكتّم
رأسها تحت جناحها.. وجناحها منشور
تواري بكاءها.. بكاءً لا ينبس ببنت شفة
أغلق خلفك البوابات... أنت لا سواك.. يا صاحبي
ثمّ إذا صرت وحدك في العتمة.. وتفرّست عيناك في الأرض
وأطرقت متوحّدًا مع لحظة حزنك
املأ قلبك حتى آخر أيام عمرك
وإذا أقفرت نفسك حينًا.. وفقدت الأيام مذاقها
سيصير هو دفق سمّك
سيدق على صدرك كلعنة واصبة.. يفزعك كروح شريرة
ويقبض على نحرك ككابوس
جاثيًا على ركبتيك ستتوسّل رياح السماء الأربع
ولن تجيبك ببنت شفة

ثمّ إذا اجتزت البلدة وبلغت المقبرة
فاحضُر هناك وحيدًا ولا يَرينَّك أحد
تفقّد قبور القدّيسين من صغيرهم إلى كبيرهم
وقف على ترابهم الرخو يغلّلك السكون
سيقبض عليك قلبك بوخز أسىً وخزي.. ستحاول كفكفة الدمع
وتنازعك الصرخة كثور ملجوم في الحلبة
ثم سترتبط على قلبك وتبتلع كل تنهيدة
ها هي العجول المذبوحة.. ها هنا ترقد كلها
وإن كان من ثمن لموتها.. قل لي.. انّى سيوفّى؟

"في مدينة الذبح" لبياليك: الطريق الذُّهاني لـ«القوة اليهودية».

اغفــروا لي... يــا مســتضعفي الأرض.. حتــى الــربّ خاشــع لموتكــم
خاشع هو في حياتكم... وأكثر من بعد موتكم
وإذا وقفتم ببابه غدًا تريدون قصاصكم
سيفتح لكم: ها نزلت من مقامي الأعلى
أنا كِمد لأجلكم.. لدمكم المجاني
لكن لا أنتم.. ولا أنا
نعرف لماذا وفيمَ قضيتم
لا معنى لموتكم... كما لم يكن معنى لحياتكم
وماذا عن الروح القدُس؟
إنها تختبئ وراء الغيمات
تنشر الألم والأسى في الأرجاء
ليلًا سأهبط أنا أيضًا إلى القبور
سأتأمل الموتى وأستحيي في سرّي
وأقسم لن تنذرف مني دمعة
من فرط ما تنامى بي الأسى والخزي
وأيّهما أدهى... قل لي.. يا صاحبي!
أو حريّ بك الإغضاء!
كن شاهدًا صامتًا.. لمّا رأيتني في خزيي وألفيتني في ملمّتي
وإذا عدت إلى قومك.. لا تعد خاوي اليدين
لأنك ستحمل من وصمة عاري ما تلطّخ به جباههم
ومن وجعي ما تردّه إلى صدورهم

ثمّ إذا تركت قبور الموتى
ورمقت لوهلة العشب الممهود من حولك
رخوًا ورطبًا كأوّل الربيع
تلك براعم الموت وحشائش القبور
جزّ منها ملء كفّيك وانفضه خلفك
وردّد: قومــي صــاروا نُتَــف حشــائش.. وهــل تنمــو النُّتَــف مــن جد يد ؟
أدر مقلتيك عن الموتى
واطفق عائدًا من المقابر إلى إخوتك الناجين من المقتلة
هلمّ في يوم صومهم إلى بيوت صلاتهم
ستسمع تأوّه انكسارهم وستلفحك دموعهم
وسيمتلئ البيت ندبًا.. بكاءً وزفرات حوشيّة
وسيقشعرّ بدنك.. وتصطكّ عظامك خوفًا
هكذا تنوح أمّة تائهة.. قلوبها أمحلت وتصحّرت
حتّى بذور النقمة فيها لا نماء لها
حتّى لعنات الغضب والمذمّة لا تنفلت من شفاههم
هل جروحهم صادقة؟ أم صلاتهم زائفة؟
لماذا ينكرون أمامي مصابهم؟ ما طائلة النكران؟
انظر كيف يتهرّؤون في كآبتهم
يخرّون باكين ويعتنقون المناحة
هــا هــم ينقــرون عــلى صدورهــم... يجلــدون أنفســهم بســياط الاعــتراف:
"أذنبنا.. خنّا أنفسنا".. وقلوبهم لا تصدّق شفاههم
أخطيئة الحزن المعلن؟ أمذنب من يكسر الصمت؟
وفيمَ يتوسّلونني... فأحدّثهم ويجزعون نافرين؟
حرى بهم أن يرفعوا قبضاتهم ويقتصّوا من عارهم
عارِ كل الأجيال من أوّلها إلى آخرها
وليهدّوا أعمدة السماء بقبضاتهم
وأنت أيضًا.. يا صاحبي... كن واحدًا منهم
آمن بضنَك قلوبهم.. لا بابتهالاتهم
بمــا يصــدح بــه المرتّــل: «أعــن الضحايــا.. أعِــن الرضّــع.. ومــن يحتاجــون العناية»!
وسيضجّ الواقفون في المعبد بولولة حِداد
ويقشعرّ بدنك وتصطكّ عظامك خوفًا
عندها سأُغلِظ عليك... ثمّ سيخبو خوار بكائك
وإذا انفلتت منك صرخة... سأخنقها في حلقك
فليندبوا وحدهم فجيعتهم... وأنت لن تندب
ستتناسل الفجيعة لأجيال... وأنت لن تندب
ستتناسل لأجيال ولن تؤبَّن
وأنت ستحرس دمعتك
ستبنى عليها جدارًا من نحاس وقلعة من حديد
بالغضب المميت.. بكراهية جهنّم.. وبالغيظ المكظوم
الذي سيربض في قلبك كأفعى في جحرها
اتركها تجوع وتعطش... ثمّ حطّم قيودها
أرخِ العنان لرأسها الوحشيّ وأنيابها السامة
وعلى جموع كلّ من دونك ودونهم ضغينة أو شفقة
أطلقها في يوم غضب

خلِّ عنك المكان مع ساعة الشفق
بينما تراقب المشهد الأخير لحداد أمّة بأكملها
ها كلّ تلك الأنفس التي أفاقت باكرًا.. عادت إلى رقدتها
وبكاء متعب وحسرات روح ترنّ الآن في العتمة
لا تزال الشفاه تمغمغان.. لكن في القلب ثلمًا
لا وميض أمل فيه... وكذا لا بصيص ضوء في العيون
ستتلمّس اليدان يدًا تطمئنهما.. ولن تجدا
هكذا ستظلّ تدخّن الفتيلةُ حتى بعد أن ينطفئ زيتها
وسيظلّ الحصان الهرم ينقاد رغم خوار قواه

لم تترك لهم مأساتهم سلوى واحدة
لا ما يرمم نفوسهم... أو يعزّيهم في شيبهم
هـــا أتمّـــوا صيامهـــم... قـــرؤوا "وابتغـــى"... ثـــم أجابـــوا: «صمنـــا»[٣]
وما بال المصلّين متلكّئين؟ فليقرؤوا أيضًا «سفر المراثي"[٤]
لا... ها يصعد واعظهم على المنبر
يفتح فمه ويلجلج كلماته
يُفعم كلامه المرصوص بآيات جوفاء
لا يفوّت كلامًا إلهيًّا واحدًا من خطبته
كلامًا لا يقدح في دواخلهم شرارة واحدة
يتسمّر القطيع بشيبه وشبّانه
هؤلاء يسمعون ويتثاءبون... وأولئك يطأطئون الرؤوس
علامة الموت طبعت على جباههم
بـــارت أرواحهـــم.. انطفـــأت فيهـــم شـــعلة الحيـــاة.. وهجرهـــم اللـــه
وأنتَ أيضًا.. لا تنحُ صوبهم... ولا تنبش جراحهم
ولا تُفض عبثًا كأس كُربتهم المترعة
إذ حيثما تضع إصبعك... فثمَّ قرح عميق
كلّ بقعة في جلدهم ورم... لكنهم سلّموا لعذاباتهم
وتكلّفوا حياة العار راغبين... فما تفيدُ مواساتهم؟
أذلّاء أكثر من أن يثيروا الغضب
ضائعون أكثر من أن يثيروا العاطفة
دعهم يذهبون... مع أفول الليل
نائحين ومغطّي رؤوسهم... كاللصوص في خزيهم
كلّ منهم مع رزايا قلبه سيطفق إلى منزله
أكفّه خاوية منذ خُلقتا ونفسه فارغة منذ تنفّست
واحدًا واحدًا... سيعتلون مراقدهم مثقلين برزايا قلوبهم
عظامهم يكسوها الصدأ... ونفسهم ينخرها العفن
ثمّ إذا نهضت باكرًا ومضيت في الطرق الرئيسة
سترى جموعهم على جنبات الطرق تتنهّد وتنوح
مكدّسين عند شرفات الأغنياء.. ومطّرحين أمام بواباتهم
يصدحون جهارًا بآلامهم كالباعة المتجوّلين
منهم من برأس مشجوجة.. ومن في يده جبيرة
ومن يمدّ ساعدًا مسودًّا... ومن يكشف عن ذراع مهشّمة
عيونهم عيون عبيد بؤساء... خفيضة إلى يد أسيادهم
"رأسي مشجوجة، يا سيدي الجليل... أعطني صدقتها»..
والســـادة الرؤوفـــون تغمرهـــم الشـــفقة؛ يمـــدّون لهـــم مـــن الداخـــل عصـــاً وضمـــادة
ويقولون: «الحمد لله الذي عافانا»... فيغتبط المتسوّلون
إلى المقابر.. أيها المتسوّلون
نقّبوا عن عظام آبائكم وإخوتكم.. واملؤوا صُرَركم
احملوها فوق ظهوركم.. وسيروا
لتصنعوا منها متاعًا تتّجرون به.. على جنبات الطرقات
اعرضوها تحت الشمس على خرقكم الرثّة
واعدلوا حبالكم الصوتية على نغمة المتسوّلين
ثمّ اصدحوا فوقها بالغناء
توسّلوا إحسان الأمم وتضرّعوا لشفقة الأغيار
ستمدّون يدكم حتّى تصير دنيّة... وستتذلّلون حتى تذلّوا
والآن ماذا بقي لك هنا... يا صاحبي؟
قم واهرب إلى الفلوات
واحمل معك إلى هناك كأس الأسى.. ومزّق نفسك مِزَقًا
وقيّض قلبك وليمة لغضب يصفّده انعدام الحيلة
وسحَّ دمعك على الصخور الصلدة
أرسل صرختك المُرّة... واغرب مع العاصفة

المراجع

١ المقصـود بـه ريـش الوسـائد التـي مزقهـا المهاجمـون. يتكـرر ذكـره في شـهادات الناجـين، ويبـدو أن صورتـه كانـت مشـهديّة في البلـدة.
٢ خبـز يهـودي غـير مختمـر مكـوّن مـن عجـين وماء، يـؤكل عـادة في عيـد الفصـح متـى تحـرّم الأطعمـة المختمـرة، ومتعـارف عليـه كذلـك أنـه زاد الفقـراء عـلى مـدار العـام.
٣ "وابتغـى" مقتبسـة مـن سـفر الخـروج، وتحديـدًا الآيـة ١١ مـن الإصحـاح ٣٢: "وابتغـى مـوسى وجـه ربّـه". يقـرأ اليهـود تلـك الآيـة، وحتـى الآيـة ١٤، لـدى صيامهـم الـذي يؤدونـه تكفـيرًا عـن خطاياهـم، تيمّنًـا بنبيهـم مـوسى الـذي يخاطـب ربّـه في تلـك الآيـات بـأن يكفّـر عـن بنـي قومـه خطيئـة العجـل.
٤ مجموعـة مـن المرثيـات وطقـوس الحـداد الغنائيّـة التـي كتبـت في خـراب الهيـكل الأول.

"في مدينة الذبح" لبياليك: الطريق الذُّهاني لـ«القوة اليهودية».